الملتقى الفكري للإبداع

أي دور للقرآن في عالمنا المعاصر؟

قراءة في كتاب "المسائل الكبرى في القرآن الكريم"

نشر المقال في ملحق صحيفة "رؤية" العمانية – آب/ أغسطس ٢٠١٥

إن كتاب "المسائل الكبرى في القرآن الكريم" هو كتاب المسائل الكبرى التي تواجه الإنسان المعاصر، فقد كان فضل الرحمن مشغولاً بمشكلات العصر وهو يقرأ القرآن داعياً إلى استثمار هديه في إصلاح الفرد والمجتمع، محملاً المسلمين مسؤولية انتمائهم لهذا الدين، وكان مبدعاً في الكشف عن أبعاد حيوية وفعالة لمفهومات قرآنية تم إلف معناها وتوظيفه بطريقة سلبية، فتوحيد الله، وحدود الله، وتقديره، وهدايته، وعظمته، ورحمته، والتقوى، والآخرة، ووسطية الأمة... وغيرها من المفردات القرآنية ستكتنز من المعاني في ذهن قارئ الكتاب –حتى وإن لم يكن مسلماً– ما يجعل منه أكثر انسجاماً وأعمق وعياً برسالته في هذه الحياة، والتي هي أخلاقية بالدرجة الأولى.



عبد الرحمن حللي – كاتب وأستاذ جامعي سوري

قراءة في كتاب "المسائل الكبرى في القرآن الكريم"- عبد الرحمن حللي

بيانات الكتاب:

العنوان: المسائل الكبرى في القرآن الكريم

العنوان الأصلي للكتاب: Major Themes of the Qur'an. Chicago: Bibliotheca Islamica, 1980.

المؤلف: فضل الرحمن مالك

المترجم: مُحَمَّد أعفيف

الطبعة :ط:١، بيروت : جداول للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣، ٣٢٧ صفحة

نبذة عن المؤلف:

ولد مُحَمَّد فضل الرحمن مالك في الهند (باكستان حالياً) عام ١٩١٩، درس العلوم الإسلامية التقليدية إضافة إلى الدراسة الحديثة حيث تخرج من جامعة البنجاب، ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة أكسفورد ١٩٤٩، عمل لسنوات في باكستان وأثارت أفكاره جدلاً اضطره للانتقال إلى أمريكا عام ١٩٦٨ حيث عمل أستاذاً في جامعة شيكاغو، توفي عام ١٩٨٨، تميزت أعماله بمقاربة الحداثة من منظور مفكر مسلم ممارس للشعائر الدينية، فكان مشروعه الفكري يركز أساساً على نقد افتقاد الحداثة للقيم، وأهمية تجسيد المثل العليا للقرآن على مستوى الفرد والمجتمع مؤكداً على المسؤولية الأخلاقية التي يتحملها المسلمون في هذا الإصلاح.

ما تزال الصورة الذهنية في العالم العربي عن أعمال المفكر الإسلامي الباكستاني فضل الرحمن غامضة أو متأثرة بفكرة مسبقة عنه ترتبط بالحملة التي واجهها في ستينيات القرن الماضي إثر بعض الآراء والاجتهادات التي أبداها آنذاك حين كان في باكستان، وهذا أدى إلى تجاهل أعماله الفكرية، وعدم ترجمتها إلى العربية، وأياً تكن وجهات نظره في بعض القضايا فإنه من الحيف تجاهل ما كتبه وأضافه في الدراسات الإسلامية عموماً، والقرآنية خصوصاً، فقد تأخرت ترجمة واحد من أهم كتبه "المسائل الكبرى في القرآن" أكثر من ثلاثين عاماً، ورغم صدور الترجمة عام ٢٠١٣، إلا أن الكتاب لم يحظ بالقراءة والنقد والانتشار الذي يستحقه، لاسيما وأن موضوعه يخص شريحة مهمة من المختصين بالدراسات القرآنية.

يتناول المؤلف في ثمانية فصول ما يراه كبرى القضايا التي اشتمل عليها القرآن (الله، الإنسان فرداً، الإنسان والمجتمع، الطبيعة، النبوة والوحي، الإيمان بالآخرة، الشيطان والشر، ظهور أمة الإسلام)، ويختم الكتاب بملحقين عن الوضع الديني للأمة الإسلامية في مكة، وأهل الكتاب واختلاف الديانات.

لعل أهم ما يميز الكتاب هو المنهج الذي سلكه في مقاربة هذه القضايا والذي يصنف اليوم في الدراسات القرآنية ضمن ما يسمى "التفسير الموضوعي"، ويقدم المؤلف تبريراً لهذا المسلك بأن منهج

التفاسير التقليدية لا يؤدي إلى تبصر كامل بالقرآن أو إعطاء نظرة متماسكة عن العالم الغني الذي يزخر به، كما أن ترتيب سور القرآن بحسب موضوعاتها لا يقدم العون أيضاً، لذلك اعتمد على الترتيب المنطقي، فالعرض التركيبي هو الوسيلة الوحيدة لتمكين القارئ من تذوق حقيقي للقرآن.

يعرض فضل الرحمن منهجه في سياق نقده للتيار الغالب في الدراسات الغربية عن القرآن والتي أسرت نفسها في تركيب سور القرآن وآياته وفق الترتيب الزمني –الذي يراه أمراً مستحيلاً– وأعرضت عن وصف المحتوى في القرآن وهو الأهم، وفي المقابل يواجه الباحثون المسلمون صعوبات تتصل بعدم وجود شعور حقيقي بملاءمة القرآن للعصر الراهن، وخوفهم من أن أي تقديم له يوائم احتياجات الانسان المعاصر قد ينحرف في بعض نقاطه عن الآراء التقليدية ومن ثم الوقوع في أخطار التبرير.

–الله–

في الفصل الأول يتناول المؤلف **"الله"** في القرآن بصفته وحده المطلق والنور الذي به تكتشف كل الأشياء وجودها وسلوكها، ويتكرر في القرآن التذكير بأن كل شيء يرجع في وجوده إلى الله، الموصوف بكثرة بالقدرة والعظمة من جهة والرحمة من جهة أخرى، فخلَق الطبيعة بقدرته وهيأها للإنسان برحمته، فكانت قدرة الله وخلقه ورحمته أمور متماثلة ومتداخلة تداخلاً تاماً، والفكرة الثانية المهمة في هذا الفصل ملاحظته معنى مصطلح "تقدير"، إذ يتضمن معنيي القوة ووزن الأشياء، فغيَّر القرآن مفهومه من قدَر أعمى لا يرحم إلى قدر ذي قوة وغاية عظيمين ورحمة من الله تعالى، وفي ذلك ضمان انتظام الطبيعة وتعبير عن الفرق الجوهري الذي لا يمكن تجاوزه بين طبيعة الله وتقديره المطلق وطبيعة الإنسان وتقديره كمخلوق، ثم يعلق فضل الرحمن على مصطلح "الأمر" الذي رآه معبراً عن قوانين الطبيعة التي لا يمكنها عصيان أوامر الله أو خرقها فكانت "مسلمة"، فالله والطبيعة ليسا عاملين مختلفين، والله والإنسان لا يتنافسان، ويجب أن يدرس القرآن دراسة تظهر وحدته في كليتها، "فالقرآن بكونه كلام الله، هو بالتحديد أمر الله وشريعته، فهو كلام يقدم عمق الحياة ونَفَسَها، ومن ثم يجب رفض اتخاذ القرآن سترة تخفي عورة الآراء المنحازة لبعض المثقفين".

> الله والإنسان لا يتنافسان، ويجب أن يدرس القرآن دراسة تظهر وحدته في كليتها

–الإنسان فرداً–

يفتتح فضل الرحمن الفصل الثاني بالحديث عن الإنسان فرداً بنقد مقولة ثنائية الروح والجسد التي شاعت بين المتكلمين خاصة بعد الغزالي وبتأثير منه، مؤكداً عدم وجود أية إشارة في القرآن يفهم منها أن الإنسان مكون من جوهرين: الروح والجسد، فبالأحرى أن يكونا منفصلين، فمصطلح النفس هو "حالة" شخصية الإنسان أو "مظاهرها" أو "مزاجها" كما يمكن أن تفهم على أساس "ذهنية" الفرد لكن لا يمكن مطلقاً أن تفسر بجوهر منفصل عن الجسد.

ثم ينتقل إلى بيان حرية الإنسان ومسؤوليته، فالأمانة التي حملها الإنسان هي إقامة نظام أخلاقي واجتماعي على الأرض، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم لا يحمل خطيئة، لكن المبادرة لفعل الشر والتكرار تجعل حظوظ التراجع عنه صعبة، وهي حال الإنسان الذي وصفه القرآن بالختم على قلبه، وهي لا تفيد الجبر بحال، بل إن القول بالجبرية يقوض الأساس الذي ينطلق منه القرآن الكريم الذي يسمي ذاته (هدى للناس)، فالإنسان يختار طريقه والله تعالى يعاونه بحسب مجاهدته، وحين ينجذب الإنسان نحو الأسفل، فإن شعوره يصبح متلبداً لا يمكنه من السماع الفعلي لصوت الحقيقة ويتحول إلى مقاومة فعلية للحقيقة ورفضها، وهو ما يسميه القرآن بـ"الكفر" الذي هو هجر فعلي لله تعالى.

> الإنسان هو الاستثناء في قوانين الكون، لأنه الوحيد من بين المخلوقات جميعاً الذي مُنح حرية الاختيار بين طاعة الله أو عصيانها

تحت تأثير عوامل مختلفة أضحى تأويل مفهوم "القدر" و"التقدير" في القرآن يأخذ معنى حتمية إلهية مسبقة تعم كل شيء بما فيها أفعال الإنسان، بينما الإنسان هو الاستثناء في قوانين الكون، لأنه الوحيد من بين المخلوقات جميعاً الذي مُنح حرية الاختيار بين طاعة الله أو عصيانها، فكل المخلوقات تتبع طبيعتها بصورة آلية، بينما الإنسان، الذي من الواجب عليه اتباع طبيعته، هو الوحيد الذي بإمكانه اتباع طبيعته أو عدم اتباعها، وبالتالي فكل أفعال الشر والظلم (الأعمال التي تنحرف عن الطبيعة المعيارية للإنسان) هي كما لو أن فاعلها ارتكبها ضد نفسه "ظلم النفس".

إن التناقضات الحادة التي تكتنف الإنسان هي توترات طبيعية في السلوك الإنساني، لأن **الهدف الأساسي لهذه البنية الوصول إلى المدى الأقصى للطاقة الأخلاقية**، وأي ترجيح لإحدى الكفتين ينتج "حالة شيطانية" تساوي "العدمية الأخلاقية"، والشيطان في القرآن نموذج لهذا التشويه (الكبرياء وفقد

الأمل)، لذلك فإن القرآن لا يكتفي بإدانة الكبرياء وادعاء صلاح الذات بل يدين على نحو مماثل الشعور باليأس والضعف، **فالكبرياء واليأس يساويان "الكفر" الذي هو تسمية أخرى لفقدان الطاقة الأخلاقية.**

إن أي خطأ (نسيان الله) يخلخل توازن هذه التوترات هو بحسب ما يسميه القرآن بـ"تعدي حدود الله"، و"تذكر الله" هو الذي بإمكانه وحده لُحمة الشخصية، ولا يتحقق ذلك آلياً، بل لا بد من الانتباه الكلي وبكل ما يملك من قوة ليكون وسطاً (اللحظة التي يتوازن فيها الطرفان معاً ويكونا حاضرين وغير غائبين ومندمجين لا ينفي أحدهما الآخر)، هذا التوازن هو "التقوى" الراسخة ضمن التوترات الأخلاقية "حدود الله" لا تتعداها، وتمنع الناس من التعدي، وإن تعدوا فإن التقوى تؤدي بهم إلى التوبة وتعديل انعدام التوازن في شخصياتهم.

-الإنسان والمجتمع-

يؤكد فضل الرحمن أن الهدف المحوري للقرآن الكريم هو إقامة نظام اجتماعي في الأرض قابل للحياة والبقاء، والفرد والمجتمع يبدوان مترابطين، فمفاهيم عمل الإنسان كالتقوى لن يكون لها معنى إلا في سياق اجتماعي، وفكرة "ظلم النفس" التي تنتهي إلى هلاك الفرد أو المجتمع هي القضاء على الحق في الوجود في سياق اجتماعي وتاريخي معين (فرعون مثالاً)، والقرآن يحمِّل مسؤولية تدهور المجتمعات وانهيارها إلى الغفلة التي ينغمس فيها مترفو تلك المجتمعات، وقد عزز القرآن أواصر الوحدة الأسرية، والأواصر الجامعة للأمة الإسلامية على حساب القبيلة لاسيما في الآيات المدنية، مع تأكيد قرآني واضح على الأمر بالقيام بالعدل وقول الحق لحفظ التوازن بين العلاقة بالأسرة والأمة وبين الناس أيضاً بما فيهم الأعداء.

> الهدف المحوري للقرآن الكريم هو إقامة نظام اجتماعي في الأرض قابل للحياة و البقاء

تشكل الأمة الإسلامية ومن خلال مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعاليم تمثل في مجموعها البعد الاجتماعي للتقوى، فتحكم الجماعة من خلال مؤسسة الشورى، التي تمثل قيادة جماعية تتحمل المسؤولية، والقاعدة العامة في القرآن هي الأمر بطاعة أولي الأمر، لكن ذلك لا يعني منع الثورة أو الاحتجاج، فكل الرسل في القرآن كانوا ثائرين على الأوضاع القائمة، والمعيار هو ما سماه القرآن

"الفساد في الأرض"، والذي يعني "أي حال من أحوال الدولة التي تؤدي إلى تفشي الفوضى وانعدام القانون —سواء في المجال السياسي أم الأخلاقي والاجتماعي- أي حين تخرج الشؤون العامة على صعيد الدولة الواحدة أو على الصعيد الدولي عن السيطرة"، ويُعَدُّ خرق الحقوق الأساسية (الحياة-الدين-الكسب-العرض) فساداً في الأرض، بل إن التخلي عن الواجبات التي فرضها الله يؤدي إلى الفساد، فـ"الحقوق" و"الواجبات" وجهان لعملة واحدة.

وفيما يخص الاصلاح الاجتماعي في القرآن يرى فضل الرحمن أنه لن يفهم فهما صحيحاً إذا ما نحن لم نميز بين التشريعات القانونية والوصايا الأخلاقية، ففيما يتعلق بالنساء مثلاً "يخطئ الكثير من الفقهاء حين يعتبرون القرآن كتاب قانون أو تشريع ولا يعتبرونه مصدراً دينياً للقانون أو التشريع"، فكل قانون أو تشريع يكون مرفقاً بتوضيح يفسر أسباب إعلانه، فإن معرفة الخلفية الاجتماعية والتاريخية التي بني عليها القانون تكون ضرورية لفهمه، هذه الخلفية التي تسمى "نسبة التشريع" هي الجوهر بينما يكون القانون نفسه تجسيداً لها ما دام وفياً لها، فإذا لم يبق وفياً فيجب تغييره.

> الاصلاح الاجتماعي في القرآن لن يفهم فهما صحيحاً إذا لم نميز بين التشريعات القانونية والوصايا الأخلاقية

إن جوهر مقاصد القرآن منع الشعوب من الفساد في الأرض والوقوع في الضلال، وكلفت الأمة والجماعة بمهمة منع الفساد في الأرض أو إصلاحه إن وقع من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لمنع الآخرين من الانتحار أخلاقياً، فالتقوى الفعالة والنشيطة (وليست التقوى السلبية) هي التي ستفوز حتماً.

والتاريخ الإنساني عمليات مستمرة من تشكيل المجتمعات وتفكيكها وفق معايير أخلاقية، هذه المعايير هي "سنة الله"، فينزل العقاب على الشعوب والأمم ولا يطال الأفراد لأن حسابهم يكون يوم القيامة ويتحدث القرآن عن حسابهم بعبارات المغفرة والرحمة بخلاف العبارات الجافة والقاطعة المستعملة في حساب الشعوب.

–الطبيعة–

في حديثه عن الطبيعة يرى فضل الرحمن أن علم الكونيات في القرآن الكريم –ميتافيزيقا خلق الكون– يذكر في أدنى الحدود، والزمن في القرآن نسبي يتعلق بنوع التجربة التي كان موضوعاً لها، لكن بالمقابل يكرر القرآن إفادات عن الطبيعة والظواهر الطبيعية، ويربطها أحياناً بالله (المسيطر عليها) أو الإنسان (المسخرة له) أو بهما معاً، ويشير إلى علاقة سببية أو علية طبيعية وإلى سببية إلهية تجعل كل شيء مرتبط بالله، فتقدير الله للأشياء لا يعني "القدر المحتوم" إنما "المحدود"، فالله قادر على تبديل فعالية الأسباب الطبيعية أو كبحها أو تعطيلها مؤقتاً، وذلك لإيجاد علامات منذرة تنبه الإنسان لوجود قدرة الله، فالإنسان ينسى لله ما دامت الأسباب الطبيعية لصالحه، فإذا خذلته اكتشف الله، فمشكلة الناس مع الطبيعة أنهم لا يرون الكون المنتظم آية أو معجزة، لكن يبحثون عن زوال العمليات الطبيعية أو انقطاعها لاكتشاف المعجزات الإلهية.

ويلاحظ أن القرآن مثل الطبيعة يعبران عن كلمات الله التي لا تنضب، ولم يأت ذكرهما مقترنين مصادفة بل لوجود ارتباط حميم بين الاثنين –كما توصل لذلك علماء المسلمين سابقاً–، ويتعاور الحديث عن الطبيعة في القرآن بعدان، مفاهيم انتظام الطبيعة واستقلالها لتثبت للإنسان منفعة الطبيعة له وتسخيرها من أجله فهي مظهر من مظاهر قوة الله المسخرة لخير الإنسان، ومفاهيم تؤكد لا مطلقية الطبيعة من جهة ثانية وتستغل في الغالب لإثبات قابليتها للتدمير وإعادة خلقها من جديد للمحاسبة.

> مشكلة الناس مع الطبيعة أنهم لا يرون الكون المنتظم آية أو معجزة، لكن يبحثون عن زوال العمليات الطبيعية أو انقطاعها لاكتشاف المعجزات الإلهية

–النبوة والوحي–

يرى فضل الرحمن أن النبوة وحدة غير قابلة للتجزيء، فرغم كون الأنبياء أرسلوا إلى شعوبهم أول الأمر إلا أن الرسالة التي يبلغونها ليست محلية فحسب، فهي تحمل مغزى كونياً، ورغم ختم النبوة إلا أن الحيرة والارتباك الأخلاقي للإنسان لا يساير تقدمه المعرفي، لذا فإن النضج الأخلاقي للإنسان مشروط ببحثه

الدؤوب عن الهداية من الكتب السماوية، ويجب أن يضاف أن الفهم الصحيح والملائم للهداية السماوية لم يعد اليوم مقصوراً على شخص مختار بل أضحى مهمة جماعية.

ويلحظ أن عقيدة التوحيد التي دعا إليها جميع الأنبياء تحولت عند غير المسلمين وعند كثير من المسلمين على حد سواء إلى مجرد صيغة ميكانيكية فاقدة الكثير من محتواها إضافة إلى فقدانها عمق الإحساس الذي يتولد من عقيدة التوحيد.

ورغم ختم النبوة إلا أن الحيرة والارتباك الأخلاقي للإنسان لا يساير تقدمه المعرفي، لذا فإن النضج الأخلاقي للإنسان مشروط ببحثه الدؤوب عن الهداية من الكتب السماوية

يفرق فضل الرحمن بين الملائكة وبين المكلف بالوحي والمسمى "الروح" والذي لم يوصف في القرآن بأنه ملك أبداً، فمن المحتمل أن الروح هو الهيئة الأسمى لطبيعة الملائكة والأقرب إلى الله تعالى، فكثيراً ما يقترن ذكر الملائكة والروح في القرآن، وعندما طلب أهل مكة أن ينزل ملك بالكتاب أجيبوا بأن المكلف بالوحي هو روح (جبريل) تنزل على قلب النبي ولا يمكن أن ترى، فالروايات التي تصف جبريل بصورة شخصية هي محض خيال متأخر.

ويرى –بصيغة متواضعة– أن الروح قوة أو قدرة أو ملكة تتطور في قلب الرسول عليه السلام يتمكن من خلالها بلوغ عملية الوحي الفعلي عند الحاجة إليه، غير أن هذه القدرة أو الملكة نزلت في الأصل من الأعلى، وأن هذا التأويل ينسجم مع التفسير التقليدي الإسلامي القائل بنزول القرآن كاملاً أول الأمر إلى السماء الدنيا ويؤتى بآياته حين تستدعي الحاجة ذلك. ويقترن ذكر الوحي في القرآن بمصطلح "الأمر" وهو ما سماه القرآن بـ"اللوح المحفوظ" أو "أم الكتاب"، فهو أصل الكتب السماوية بما فيها القرآن الكريم، في مرتبة أعلى من مرتبة الملائكة.

–الإيمان بالآخرة–

بأسلوب بليغ يصف فضل الرحمن الآخرة بأنها ساعة الحقيقة التي يكشف فيها الغطاء الذي يحجب الإنشغالات الذهنية للإنسان عن الحقيقة الأخلاقية الموضوعية، فكل شخص في تلك الساعة سيجد أعماق نفسه وقد استخرجت من بين أنقاض اهتماماته العرضية، حيث تستبدل الوسائل العادية بالوسائل

الحقيقية، ويستبدل الباطل بالحق، بل يصبح أكثر جمالية وجاذبية من الحق العادي الذي كان يحجبه "الغرور" أو خداع النفس المتعدد الطبقات.

وفي المقابل فإن "الدنيا" ليس المقصود بها – على النقيض مما قد يتصوره البعض – أنها العالم الذي نعيش فيه، بل المقصود بـ"الدنيا" القيم والمساعي المنحطة التي تبدو لأول وهلة مغرية لمعظم الناس فيسعون إليها في معظم أوقاتهم على حساب السعي في سبيل غايات سامية تدوم على المدى الطويل.

لقد كانت فكرة البعث من جديد الأصعب على مشركي مكة، "ناهيك بطبيعة الحال أن تكون فكرة المسؤولية الأخلاقية أو فكرة نهاية الحياة مفهومة، وهذا لا يزيد عما تقوله اليوم المجتمعات العلمانية في هذا الصدد."، لذلك فإن كل الآيات القرآنية عن الآخرة تؤدي إلى نتيجة واحدة: أن على الإنسان تحمل مسؤولية أعماله وأفكاره ونواياه. وأن يأخذ الحياة على محمل الجد.

> "الدنيا" ليس المقصود بها - على النقيض مما قد يتصوره البعض - أنها العالم الذي نعيش فيه، بل المقصود بـ"الدنيا" القيم والمساعي المنحطة التي تبدو لأول وهلة مغرية لمعظم الناس فيسعون إليها في معظم أوقاتهم على حساب السعي في سبيل غايات سامية تدوم على المدى الطويل.

وأن يميز بين الصواب والخطأ والعدل والظلم من خلال مصباح "التقوى" كنبراس داخلي قادر على التدرج من وعي ذاتي ساذج بالصلاح والورع إلى أعلى الدرجات التي يمكن فيها للمرء أن يكشف على ذهنه وشعوره. فـ"إن أولئك الذين يخفون داخلية أنفسهم في هذه الدنيا — ويفشلون طبعاً لأنهم في الواقع ينجحون ليس في إخفاء أنفسهم عن الاخرين، بل في إخفائها عن أنفسهم– هم الذين يكون لهم ألف سبب الذي يجعلهم يخشون يوم الحساب" .

–الشيطان والشر–

يشخص القرآن مفهوم الشر في إبليس (من الجن) والشيطان (الذي يستعمل مجازياً كناية عن البشر)، ويُظهر القرآن الشيطان في صورة متمرد على أوامر الله وليس شخصاً عدواً له، فهو في الحقيقة عدو لبني آدم، ويتخذ من الإنسان وما يحيط به مجالاً لأنشطته، المتمثلة بإرباك الشخص ووضع غشاوة مؤقتة على حواسه الداخلية قد تتحول إلى دائمة في حال الأشرار من الناس، لكن لا سلطان له على

أولئك الذين يحصنون أنفسهم ضد أي اختراق لنزاهة أخلاقهم (أهل التقوى)، بل إن الشيطان ليس بالقوي، إنما هو متمرد، وتعبيراً عن يأسه وفقده للأمل اتخذ استراتيجية قطع الطريق المستقيم على الإنسان مستغلاً ضعف الإنسان وانعدام شجاعته الأخلاقية وعدم احتراسه.

"إن كل ما يفعله الشيطان هو تدمير قدرة نظرته الداخلية التي وصفها القرآن بالتقوى".

فالضعف متأصل في الشيطان بينما الحق ولد قوياً، وما يهدد الإنسان هو فشله وضعفه أمام دهاء الشيطان، فنهي القرآن عن اتباع خطوات الشيطان يدل على أن الشيطان لا يمكنه إجبار أحد على اتباعه، وأن اتباع خطواته تؤدي إلى تدمير ذاتي للضحية، فالمشكل الحقيقي في ذات الإنسان والوسيلة الوحيدة التي يدافع بها عن نفسه هي التقوى، فهناك صراع بين نزعتين داخل الإنسان غير أن نزعة الشر تصبح شديدة القوة من خلال وجود الشيطان ومكائده التي تتخذ أوجهاً متعددة، فتُلبس الشر ثوب الخير، "إن كل ما يفعله الشيطان هو تدمير قدرة نظرته الداخلية التي وصفها القرآن بالتقوى".

–ظهور أمة الإسلام–

في الفصل الأخير والملحقين بالكتاب يوجه فضل الرحمن نقداً مباشراً للدراسات الغربية عن القرآن والسيرة، والتي يرى أن المصدر الأساسي للخلط والإرباك فيها يثوي في النظر إلى سيرة النبي وإلى القرآن نظرة تفصل فصلاً قاطعاً بين فترتين – الفترة المكية والفترة المدنية- والتي أضحى معظم الباحثين المعاصرين مدمنين عليه.

ويؤكد أن أهل مكة من العرب لم تكن لديهم آراء دينية متطابقة أو متماثلة حين ظهور الإسلام، وأن كثيراً منهم كان على معرفة بالتعاليم اليهودية والمسيحية، لكن ذلك لا يعني أنه كانت هناك جالية كبيرة من اليهود في مكة.

وبالرغم من عدم موافقة المكيين على الإيمان الجديد إلا أنه لم يكن باستطاعتهم أبداً تشكيل معارضة قوية ضده، ويفند فضل الرحمن ما يعتقد البعض من أن محمّداً عليه السلام وأتباعه كانوا في حال من الضعف والعجز وتحت رحمة خصوم بإمكانهم القضاء عليهم متى حلا لهم ذلك، ويصف ذلك بأنه محض خيال ابتكر في السرد المتأخر الذي كتبه بعض المسلمين وتأثر به المستشرقون، فنشر الرسول الدعوة بين قبائل الحجاز وزيارة الطائف ويثرب عقب وفاة زوجته وعمه هي تحركات شخص استقطبت دعوته ما يكفي من الأتباع مما جعله واثقاً من نفسه.

ويلاحظ أن القرآن يشير إلى أنه كان من أتباع اليهودية والمسيحية من أكّدوا حقيقة رسالة محمّد مبكراً، بل كان منهم من شجعوه على الصمود أمام معارضة أهل مكة، غير أن كتب التاريخ لا تخبرنا بشيء موثوق عن هؤلاء، وكان الرسول يأمل في توحيد الديانات المتعددة في أمة واحدة بناء على التعاليم التي أنزلت عليه والشروط التي تقتضيها، "لكن عندما تكونت لديه معرفة بالخلافات بين أتباع الديانات السابقة وطوائفها المختلفة، أخذ يدرك تدريجياً أن هذا أمر لن يحدث"، ثم أخذ القرآن الكريم يصف الدين الذي جاء به محمّد عليه السلام بالدين "الحنيف" أي عقيدة التوحيد الحقة التي لا اعوجاج فيها، و"الدين القيم" الذي يرى في الوثنية والانقسام إلى طوائف انحرافات عن الدين الحق، وفي الفترة المدنية يختفي تعبير الأحزاب كدلالة على الجماعات الدينية ويستبدل بمصطلح "أمة" و"أهل الكتاب"، حيث جرى في المدينة الاعتراف باليهود والنصارى كأمتين منفصلتين عن الأمة الإسلامية مع الاستمرار في دعوتهم إلى الإسلام، ورد عليهم دوى حصرية الهداية، ويرى فضل الرحمن أن القرآن يعترف بوجود أناس صلحاء ضمن الجماعات الدينية الأخرى (اليهود والنصارى والصابئين) ولا جدوى من تأويلات المفسرين التي تتحاشى المعنى الجلي للآيات.

> الدعوة إلى كلمة سواء إن لم تخلص تاريخياً إلى نتيجة إيجابية إلا أن الفرصة قائمة للعمل بتعاون إيجابي، وذلك بالاستماع جيداً لما يقوله القرآن، وليس الاستماع إلى الصيغ التاريخية عن الإسلام فحسب

إن القيمة الإيجابية لاختلاف الديانات والجماعات المؤمنة تتمثل فيما قد يحصل بينها من تنافس في الأعمال الصالحة، والأمة الإسلامية ذاتها هي خير أمة أخرجت للناس غير أنها لم تتلق ضماناً بأن تكون

مقربة من الله بصورة آلية إلا إذا اضطلعت بواجباتها الأساسية، بل تحذر آية من سورة محمد المسلمين باستبدالهم بقوم آخرين إن هم تولوا عن دينهم وأخلوا بواجباتهم.

ويختم فضل الرحمن كتابه بملاحظته أن الدعوة إلى كلمة سواء إن لم تخلص تاريخياً إلى نتيجة إيجابية إلا أن الفرصة قائمة للعمل بتعاون إيجابي، وذلك بالاستماع جيداً لما يقوله القرآن، وليس الاستماع إلى الصيغ التاريخية عن الإسلام فحسب.

إن كتاب "المسائل الكبرى في القرآن الكريم" هو كتاب المسائل الكبرى التي تواجه الإنسان المعاصر، فقد كان فضل الرحمن مشغولاً بمشكلات العصر وهو يقرأ القرآن داعياً إلى استثمار هديه في إصلاح الفرد والمجتمع، محملاً المسلمين مسؤولية انتمائهم لهذا الدين، وكان مبدعاً في الكشف عن أبعاد حيوية وفعالة لمفهومات قرآنية تم إلف معناها وتوظيفه بطريقة سلبية، فتوحيد الله، وحدود الله، وتقديره، وهدايته، وعظمته، ورحمته، والتقوى، والآخرة، ووسطية الأمة... وغيرها من المفردات القرآنية ستكتنز من المعاني في ذهن قارئ الكتاب –حتى وإن لم يكن مسلماً– ما يجعل منه أكثر انسجاماً وأعمق وعياً برسالته في هذه الحياة، والتي هي أخلاقية بالدرجة الأولى.